القسم الرابع

على هامش الريف

oberkandl.com

قصة ريفية

ذبول...

بقلم المؤلفة

وأخيراً اطمأن الشاب إلى صداقتى بعد أن كدت أيأس منه ، وزالت من عينيه نظرة الشك التى كان يطالعنى بها كلما حاولت التقرب إليه ، واختفى الاحترام المتكلف الذى كان يتكلفه أمامى . وحقيقة لقد كانت الهوة بيننا متسعة لكنى صبرت وثابرت . ومازلت به حتى وثق بى واطمأن إلى ، وأصبح ينظر إلى فى المستوى الأفق لعينيه ، بعد أن كانت كلماته تنطلق كأنما هى صاعدة من مكان بعيد الغور .

لقد كان موقفنا شاذاً مضحكا ، فبالرغم من كونى صديقة سيدته الهانم . فقد كنت أحاول التقرب منه ، بينما كان هو - هو البستانى البسيط - ينفر منى ويأبى أن يخاطبنى بغير تلك اللهجة الرسمية الشديدة التكلف . وبدلا من أن تسير علاقتنا سيراً طبيعياً يتناسب ومركز كلينا ، بحيث

يتقرب هو إلى ، وأترفع أنا عن التحدث إليه ، كان يتهرب من محادثتى ويتجنب النظر إلى ، فإذا سألته عن شىء أجاب إجابة مقتضبة تتكرر فيها كلمة « سيدتى » بكثرة مملة بينما يكون نظره عالقاً بالأرض دائماً ، كأنما كان يظن أننى لست بريئة فى التحدث إليه ، وأننى لا أتنازل لمحادثته إلا سخرية به أو تهكما عليه ، فإذا أحسن الظن بى فلا أقل من أنه كان يعتقد أننى لا أمنحه كلماتى وعطفى إلا كما يمنح المحسن السائل دراهمه ! !

وحاولت كثيراً أن أجعله يفهم أننى لست من الثراء كما يتوهم ، وأن صداقتى للعائلة الثرية ليست لتساوينا فى المركز والثراء ، وإنما لأن لى فضلا على سيدته الصغيرة الآنسة خديجة هانم أيام كنا نطلب العلم فى مدرسة واحدة ، وكان لى حظ من التفوق أمتاز به عن بقية الزميلات ، وفى دور العلم حيث الجميع سواء ، صارت خديجة هانم وهى ربيبة العز والثراء ، صديقة لى ، أنا الفتاة التى لا حظ لها فى مجد أو ثراء ! غير أن هذا لم يقنعه ، وازددت أنا تشبثاً بنيل ثقته لأعلم ماذا وراء تلك الثياب البالية ، ولأرى أى نفس تتعمق فى هذا الجسم البادى

الشحوب ، وأى أسرار تختفى وراء تلك النظرات الشاردة العجلى ، فكنت أجلس بجانبه وأتناول الطعام من أمامه إذا مررت وهو يأكل ، فإذا لمحت قذارة فوق ثوبه الأزرق الباهت ، مددت يدى فأزلتها دون تكلف أو امتعاض ، وهكذا بدأ يطمئن إلى ، ويثق بى بعد طول تشبث وعناد .

* * *

كنت أتردد على قصر صديقى كثيراً لشغفى بالجلوس وسط أحواض الأزهار واستلهام الخيال فى هذا الهدوء الشامل ، ووسط ذلك الجمال الطبيعى الساحر الأخاذ ، فقد كنت محرومة من ارتياد الحدائق العامة احتراماً لتقاليد الأسرة ، ولأن حريتى ستكون محدودة ما دمت محتجبة حريصة ، ولهذا لذ لى أن أستعيض بجمال حديقة القصر عما فقدته .

وكان كوخ يوسف ـ الشاب البستانى ـ يكاد يختفى بين الحشائش الطويلة وشجيرات البرتقال ذات الرائحة النفاذة العطرة ، ولا يصل المرء إليه إلا بعد أن يمر على

أحواض منسقة بديعة من زهور البنفسج الزرقاء وزهور العايق البيضاء. كان الشاب فناناً يعرف سر مهنته ويتفانى فى عمله ، ويسرف فى إرهاق نفسه كأنما كان ينشد فى العمل عزاء وسلوى عن شىء نجهله !

ذهبت إلى القصر فى أوائل شهر يونيه الماضى حيث اشتدت قسوة الحر فى بعض أيامه إلى درجة كادت تصهر فيها أبدان أبناء الطبقة الثرية المترفة ، وهى أجسام ناعمة غضة لينة ليس فيها خشونة أجسامنا وليس لها تحملنا . وكان طبيعيا أن تعجل أسرة خديجة بالفرار من القاهرة إلى إحدى موانى الاصطياف ، لأن لأفرادها أجساما يكاد يؤلمها مرور النسيم ، إنى لأذكر أن « حمدى » أخا خديجة شاكته يوما شوكة الورد فى إصبعه فاستدعى له طبيب العائلة ! ! ترى كم منا من لدغته العقرب ، أو أصابه صداع هائل ، فاكتفى فى الحالة الأولى بإسعافات ذويه الأولية . وقنع فى الحالة الثانية بقرص من « الأسبرين » ؟ ذهبت لتوديعهم فوجدت يوسف ينسق تاجا بديعا من الزهور البيضاء والزرقاء ، أية فتنة وأى سحر فى هذا التنسيق الفنى المنسجم البديع ! ! حييته فابتسم وصافحنى ، ثم جلست

بجانبه أناوله الزهيرات ليتفرغ هو للتنسيق ، فلما انتهى سألنى عما إذا كان التاج قد أعجبنى ؟ فتغاضيت عن الجواب وقلت : ما أبدعها هدية تقدمها يا يوسف لخديجة يوم سفرها ! فابتسم ابتسامة ساخرة وقال هامسا : ليست لها . فتساءلت مندهشة : ولمن إذن تكون ؟ ؟ ؟ وهنا تجهم وجهه . وغاضت تلك الابتسامة الشاحبة التى كانت كقطعة من وجهه ، فحسبت أنى آلمته وأردت أن أغير مجرى الحديث فقلت أسأله . . ترى لماذا اخترت اللونين الأبيض والأزرق لزهيرات كوخك وتاجك ؟ فصمت برهة وقال فى ذهول : ـ هذا الزهر الأبيض الناصع البياض كبراءتها وحبها وطهرها ، وهذا اللون الأزرق الباهت كجمالها وشبابها ، أو ليست هى الأخرى زهرة شاحبة يكاد يصيبها الذبول ؟ كادت الكلمات تفر من بين شفتى لتسأله (من هى ؟) لكنى أدركت أن ذلك ربما أذهب عنه ذهوله فيصمت . ولذلك قلت وأنا لا أفهم ما أقول : مسكينة ! لها الله ! لشد ما يهمنى أمرها ! فقال يوسف وهو لا يزال فى غيبوبة مطلقة وكأنه يخاطب نفسه : قذفوا بها وهى الزهرة الناضرة بين مخالب

الوحش المفترس ! باعوها بالمال وذهبوا يتمتعون بثمنها وهى وحدها تذبل وتموت ! ماتت أمها وهى فى الثانية عشرة من عمرها . قلنا لا بأس ، فستجد من عطف أبيها ما ينسيها لوعة اليتم . وهناك فى الريف المصرى الساحر ، حيث الجمال والفتنة والسكون ، نما حبى لها ، فلما تزوج أبوها ـ وهو عمى ـ بعد أربعين يوما من وفاة أمها الشابة ، عولت على أن أحميها من قسوة زوجة عمى ! كانت هذه الزوجة عقيما قاسية القلب متحجرة الفؤاد ، لا تتعفف عن نيل ما تشتهى ولو خاضت فى سبيل ذلك بحرا من الدماء ! فأصبحت (زهرة) الفتاة المدللة الصغيرة فى جحيم من الشقاء فهى لا تكاد تظفر براحة ولا طعام جيد ولا حنان . . . كان عليها أن تنقل ـ السباخ ـ الى الحقل خمس عشرة مرة فى اليوم على ظهر الحمار الأعرج الهزيل حيث تبخر الشمس قطرات قواها وشبابها وجمالها . وكان عليها أن تجمع روث البهائم كل يوم وتعده أقراصا للوقود . فإذا أقبل الليل وتراخت الأجسام تبغى الراحة ، تفرغت (زهرة) الطفلة لخدمة الدار ! ولم تكن المسكينة تشكو ، لكنى كنت

أفر من عملى أحيانا . مضحيا بأجرى كى أنتظرها على حافة الترعة . فأقوم بتوصيل الحمار إلى الحقل والعودة إليها . وهى جالسة مختبئة عند أمى ترتجف رعبا وفزعا ، وكانت تمنحنى من عطفها الشىء الكثير ، لكنى فضلت أن أتريث حتى تكبر وتنمو ، فمن الإجرام أن أفاجئها بحبى وهى بعد طفلة ساذجة صغيرة .

كان شقاؤها يميتنى ، وكان أملى فى أنى سوف أسعدها فيما بعد يحيينى ، وما زلت بين إشفاق يميت وأمل يحيى ، حتى فوجئت القرية بإعلان خطوبة (زهرة) . ممن ؟ من (الشيخ متولى) فقيه كتاب القرية ! روعتنى الصدمة وفجعنى التألم لها أشد من التألم لنفسى . (زهرة) الطفلة الجميلة الصغيرة ، تزف إلى الشيخ نصف الأعمى ، الوحشى الطباع الشرس الأخلاق ، الذى أربى على السبعين من عمره؟ لم أبك ولم أثر ، وإنما تملكنى حزن عساف مستبد ، جعلنى مطرقا ذاهلا أعمل كآلة صماء ، وكنت أتهيب الذهاب إلى (زهرة) حتى لا تقتلنى رؤيتها حزينة ثائرة ، ولكنها أرسلت تدعونى إليها فذهبت ، ولقد كنت أخشى أن يؤلمنى

حزنها فإذا بفرحها يقتلنى قتلا . رأيتها فرحة مجنونة فى فرحها تقلب الثياب الحمراء التى أعدوها لها فى غبطة ظاهرة وفرح أحمق ، سألتها : هل أنت سعيدة ؟ قالت ولم لا ؟ أو ليس هو السيد المطاع فى الحى ؟ انظر يا ابن عمى : لقد أصبحت سيدة فلم أعد أذهب إلى الحقل وراء الحمار ، ولم أعد أقوم بعمل الأمس المرهق ، وفى كل يوم يرسل لى (الشيخ متولى) قطع الحلوى وبعض الفاكهة .

أما ثوبى المزمن الذى كان كقطعة من جسدى فقد قذفت به بعيدا ، إذ ما حاجتى إليه وقد صار لى عشرة أثواب ؟ ثم انظر . . هذا النحاس الأحمر البراق لى وحدى ، وهذا الصندوق المزركش سيصبح مستودع ملابسى العزيزة ، وهذه الحشية الناعمة سأنام عليها بعد الحصير البالى ! ما بالك تبدو واجما لقد كنت أنت الشخص الوحيد ، الذى غمرنى بحنانه أيام تعاستى ، فاليوم حيث يذهب شقائى إلى حيث لا رجعة ، لا بد لك أن تباركنى ! وقفزت من مكانها وأنا حائر ، ثم طبعت على شفتى قبلة خرساء لا زلت أحس بحرارتها حتى اليوم .

كانت كلماتها الساذجة تعذبنى ، كم وددت لو أنها تثور ! ولكن لم أقل إنها طفلة ؟ طفلة تماما لا تهتم إلا بالحلوى والثياب الحمراء ، وزوجة أبيها تمعن فى تضليلها .

وتسألينى لماذا رضى أبوها ؟ لقد دفع الشيخ ثمنها ، كم تظنين ؟ أربعين جنيها ، وهو مبلغ لا يحلم به الحاج (سيد احمد) عمدة القرية ؟ ولقد زفوها إلى الشيخ وهى حتى اللحظة الأخيرة تملأ الدار ضحكا وضجيجاً ، وكنت هجرت القرية شهرين ، فلما عدت تفقدت الطفلة الجميلة اللعوب فلم أجدها ، وإنما وجدت مكانها امرأة ناضجة متفجعة تعسة ، لا تضحك ولا تبكى ، ولكنها تبدو ساهمة شاردة . . . دائماً وفى كل وقت ، وقد فهمت المسكينة مدى حبى لها لتزيد فى شقوتها ، ولكنى خنقت حبى فى صدرى وحطمت قلبى فى الوقت الذى بدأت هى فيه تهتم بى . لم أجد بداً من مشاركتها محنتها ، سعادتها هى كل شىء عندى فأما جسمى الفانى فلا شأن لى به ، وهاأنذا أذهب إليها كل أسبوع لأحمل إليها تاج الأزهار ، رمز الطهارة والجمال الشاحب الذابل ، وهناك . . . فى سجنها المظلم نجلس ساعة

صامتين لا نتكلم ولا نتحرك ، وهذه اللحظات هى النعمة التى تبقت لى ولها من الأمس الدابر البعيد .

إنى لا أعرف لحياتى نظاماً ، ولا لمستقبلى خطة ، لا إرادة لى ولا رجاء . . . إنى أمضى وسط تيار الحياة إلى حيث يحملنى ، وأما هى : فلها الله ؟ !

* * *

وسكت الشاب ، ثم أخذ يحملق فى الجو ونظره عالق بالأفق الهابط البعيد ، فقمت من مكانى تسوقنى قدماى على غير هدى فى منعطفات الحديقة ، ولما عدت إليه بعد قليل ، وجدته يعمل فى الحديقة وعلى فمه ابتسامته الذاهلة الشاحبة وفى عينيه نظراته الشاردة الجوفاء .

قصة ريفية واقعية

بين نارين

بقلم المؤلفة

فى كل مظهر من مظاهر الحياة قصة . وفى كل ناحية من النواحى مسرح تمثل عليه هذه القصص الحقيقية . ولو تلمس الإنسان حياته ونظر حواليه لأدهشه أن يرى نفسه يمثل دوراً .

نشط التأليف وكثرت الروايات . وضاقت مكاتبنا عن هذه الكتب الروائية الكثيرة . وضاق وقتنا عن تحمل هذه القراءة المتتابعة مع أن فى نواحى الحياة الكثير من هذا النوع . وما يخفيه عنا إلا ضجيج الحياة والتنافس المر والجرى وراء المادة . وهاأنذا اليوم أسجل قصة لم يسدل عليها الستار بعد ، ويغنيها عن البلاغة أنها ليست كمثيلاتها التى توضع للتسلية ، بل هى حقيقة تقع حوادثها الآن فى ريف مصر ، وعلى المسرح تقف البطلة الصغيرة حيرى تنتظر إسدال الستار ونهاية المأساة . هى قصة حقيقية تمثل

جشع الآباء - أعنى البعض منهم - وضعف الفتيات ، وتحكم المادة فى الحياة تحكما مرآ مؤلماً !

مختار بك من أعيان قرية . . . بالقليوبية فى بسطة من العيش وسعة منه ، يملك ضيعة تبلغ مائة وخمسين فداناً ، ومنزله المبنى بالطوب الأحمر وسط الأعشاش الصغيرة باللبن ، يبدو كالقصر الشامخ الذى يضم بين جدرانه العالية ، حياة غامضة لايعرف عنها أهل القرية ولا أعرف عنها أنا ، إلا الشىء القليل ، ومختار بك رغم عيشته فى صميم الريف ، يعيش عيشة المدن فملابسه وملابس أهله وأثاث بيته ونظم معيشته كلها لا تمت إلى الريف بصلة .

رزق بابنة متوسطة الجمال لكنها جذابة حسناء . فى عينيها سحر ، وفى صوتها الرنان شىء من الصرامة والأمر ، وفى فمها الصغير الغليظ الشفتين ، كثير من الغموض والإبهام . ورزقه الله بعد اليأس ذكراً يرثه ويخلد اسمه العظيم الكبير سماه « يحيى » وهو اليوم فى الثالثة من عمره ، وكانت الابنة تركب عربة أبيها كل يوم إلى بنها ، حيث تتلقى العلوم فى المدرسة الابتدائية ، ثم التحقت بمدرسة المعلمات الأولية ، وعلمها التنقل والمشاهدة أن المال لايكفى لسعادة

الإنسان إن لم يكن هادىء البال .

أفكارها فى الحياة لا بأس بها . وهى أرقى بكثير من أفكار مثيلاتها الثريات المترفات ، وعجيب أن تشب الفتاة ذات نفس رقيقة نبيلة رغم ما أعلمه من استهتار والدها .

رأيتها يوما وقد وقفت تسألنى فى حياء جم أن أسمح لها بالجلوس بجانبى ، لأن القطار - وكان ذاهبا من بنها إلى ميت بره - لا يحوى سوى عربة واحدة للدرجة الثانية ، فقبلت مرحبة وكان ذلك بدء تعارفنا .

وسرنى منها طيب وفائها ، ووجهها الصبيانى الساذج ونظراتها العميقة البعيدة الحائرة ، وبساطتها المدهشة رغم ثرائها ورغم . . استهتار أبيها .

* * *

عائلة الشيخ دسوقى ، عائلة قديمة تسكن القرية نفسها من أمد بعيد ، متوسطة الجاه ، يكد رجالها الكثيرون فى الحقل طول النهار حتى إذا عادوا ، قنعوا بملابسهم التيلية البيضاء المزهرة وجلسوا على المصطبة . منتظرين والدهم العم دسوقى ، فإذا حضر أخذوا يقصون عليه أحوال أرضهم ، فيذكر أحدهم حالة الغنم ، والثانى اهتمامه بالرى

أثناء الدور ، والثالث حالة المزروعات ، وهكذا حتى يفرغوا ، وبعدئذ يدخلون إلى وسط الدار حيث تأتى ـ مشنات ـ الخبز وإناء اللحم المسلوق ، وأطباق الخضار ، التى لا لحم فيها ، فيوزع العم دسوقى عليهم اللحم ، كل رجل وزوجته وصغاره .

عيشة ريفية صميمة ، لكنهم كانوا سعداء بها ، يزيدهم استهتار جارهم الثرى قناعة واغتباطا ، وكانوا مشهورين بالكرم والنخوة لأن جدهم ـ كما يقول العم دسوقى ـ كان من كبار الأعراب . وكان أصغر أولاد العم دسوقى ، واسمه حسين ، طالبا بمدرسة دار العلوم ، ولعله كان أسعد إخوانه ، فهو يجمع بين تحصيل العلم وبين الأصل المجيد والخير الوافر .

* * *

تعود حسين أن يقضى عطلته الأسبوعية بين أهله ، وكان يقضى الكثير من وقته فى مضيفة جارهم الثرى المتمدين مختار بك ، محاولا أن يخترق ببصره تلك الجدران السميكة ليرى ماوراءها ، أو يسير متجولا فى الخلاء ، ينشد الشعر والوحدة والالهام .

وكان الجار الثرى يرحب به ، لأنه الشخص الوحيد

فى البلدة ، الذى يلبس (افرنجى) ويتكلم بلهجة مصرية أرقى من لهجة الفلاحين (الأجلاف !)

وكانت نجية فى الرابعة عشرة من عمرها ، صغيرة حازمة ، ساذجة عالمة ، وكثيرا ما كان حسين يلتقى بها أمام الدار وفى الحقول ، وعلى حافة الترعة ، تشاهد حاملات الجرار . وكان يحسبها مثالا للغرور والكبرياء مثل أبيها المتعجرف ، ولكن أدهشه أن يراها كثيرا ، تساعد بعض القرويات على حمل جرارهن رغم ابتلال ثوبها الحريرى الأنيق ، وحذائها اللامع . ولاحظ أنها لاتأنف من محادثة القرويات والإصغاء إليهن فى ثقة وتواضع ، وهى ابنة الرجل الفظ الكسول ! كانت ملاك القرية كما يسميها الجميع ، وراع الناس منها أن تهجر القصر طول النهار ، متنقلة كالفراشة البيضاء ، حتى إذا ما أقبل الليل ، دخلت البيت مطأطئة الرأس .

أحبها حسين حبا قويا غلابا ، وعلمت هى منه ذلك فصمتت وإن لم تر فى ذلك غرابة أو شذوذا . وتجنبت جهدها لقاءه ، لاترفعا منها ، بل حياء وإشفاقا عليه أن يذهب ضحية أمل لاسبيل إلى تحقيقه ، وأن يقامر بحياته فى التعلق بسراب كاذب .

وتحادثا طويلا ، وحاولت أن تقنعه أن أباها لا يطاق ، ولكن الأمر كان قد خرج من يده ، وأصبح لا يفهم كيف يبغض تلك الصغيرة النبيلة الجديرة بالحب والإعزاز .

وأوشك حسين أن يتم دراسته فتقدم إلى أبيه الشيخ ، يكشف له عن حبه ، فنهاه الأب وذكره بتقاليد الأسرة ، التى تأبى زواج الشاب من غير بنات أسرته ضمانا للخلق والبقاء ، وهناك بنات أعمامه كثيرات . لم يأبه الشاب لغضب أبيه وتقدم إلى أب الفتاة يطلب يدها ، فزجر الرجل وقال فى احتقار :

يا إلهى ! ابنتى أنا ؟ من أنت ؟ مادخلك وماذا تملك ؟ ألا فاذهب إلى إخوتك فى الحقل ، وانظر كيف يكون الفقر والقذارة واعرف من أنت ـ أتسمعنى ؟

خرج الشاب يجر قدميه جرا ولم يذكر لأبيه شيئا ، بل ولم ينتقم على الفتاة وقاحة أبيها وقسوته ، واكتفى بما سمعه من أن الفتاة غضبت وصرحت لأبيها أنها كانت تسعد مع حسين رغم فقره وقذارته ، وأن الأدب كان يقضى عليه أن

يصرفه عنها فى لطف واحترام ، فازداد لها حبا ، وعول فى غضبة الرجل المحب أن يكون لها أهلا .

* * *

أخذ يدرس فى مدرسته نهاراً ويتعلم اللغتين الفرنسية والإنكليزية ليلا حتى أجادهما ، فالتحق بامتحان المعادلة فى الشهادة الثانوية قسم ثان وكان من الناجحين .

حينئذ ترك مدرسته أقرب ما يكون إلى إتمام الدراسة بها ، والتحق بمدرسة المعلمين العليا ، وقسا على نفسه فى العمل والاجتهاد ، غم عذابه ولوعته ، معتقداً أنه بذلك يسير إلى أمله سيراً حثيثاً ، لقد عاهد نفسه أن يكون لها أهلا . . . فليعمل ! وطالت الأيام ، ثم قصرت فجأة ، ثم إذا به يرى اسمه فى طليعة قائمة الناجحين فى الدبلوم فحمل أمله وثروته ، وركب القطار إلى القرية . . إلى أب الفتاة .

* * *

ضج العالم لنزول أسعار القطن واشتداد الأزمة ، وأصبح كل فلاح يحمد الله أن وجد كسرة وسترة ، ولكن رجلا متمديناً مترفاً مثل مختار بك ، كيف يقنع بما قنع به

المزارعون البؤساء ؟! إن سحب الأزمة ستنقشع قريباً ، فلماذا ينزل من علياء سمائه !

لقد يكفى نفراً كالعم دسوقى مثلا أن يزرع أرضه قمحاً فيأكل ، وبرسيما فتأكل غنمه وبهائمه ، فيبيع من الأولى مايكفى لدفع الضرائب ، ويأخذ من الثانية مايأتدم به .

أما مختار بك الثرى الوجيه فلا يكفيه شىء من هذا ، لايكفيه إلا « البنك الألمانى الشرقى » يغترف منه مايتنعم به ، وحوله أكباد تحن إلى الرغيف العفن . وبطون تتضور جوعاً . وكان أطفال القرية كلها يقفون متحسرين دهشين حينما يشاهدون أمام بيته ، بقايا عظام اللحم وقشور اللوز والبندق والفاكهة !

وضاق (البنك) عن مطالبه ، أو ضاقت أرضه عن ضمانة البنك ، والأزمة متباطئة لم تنفرج بعد ! ووقعت الكارثة !

☆☆☆

ذهب حسين إلى القرية بعد أن هجرها أربعة أعوام ، فراعه أن يجد شيخاً طاعناً فى السن غريباً عن القرية ، يسكن فى بيت من أحبها وأخلص لها الحب ، ولكن ساعة واحدة كانت كافية ليعرف كل شىء !

على الدم حاراً فى عروقه . . . يجب أن يسدل الستار على مامضى وينقذ الصغيرة النبيلة ! والمرة الثانية تقدم إلى أبيها ، وعرفه بنفسه ومركزه الجديد ، ثم طلب يد ابنته ، فذهل الرجل برهة ثم وعده بالقبول إن قبلت ابنته .

كتب حسين خطاباً إلى الفتاة وناشدها المروءة والنبل ألا تطعنه فى صميم آماله . فأكبرت هى منه إقباله عليهم حين أدبر الدهر منهم ، بينما أعرضوا عنه أيام عزهم ومجدهم . وتقدم إليها أبوها ، لا ليعرض عليها طلب الفتى وإنما طلب المثرى العجوز الذى سكن بيتهم والذى ضجت القرية من عربدته وسكره . . . ذلك الشيخ المدم الذى قضى عمره الطويل متنقلا بين الحانات والوجوه الحسان حتى سئمتها نفسه ، فرأى أن يقضى مابقى من عمره — وإنه لقليل — مع تلك الصغيرة الحسناء على أن يرد إلى أبيها أرضه وثروته !

وبكى الأب مستعطفا ، وبكت الأم والهة حائرة ، وبكى الطفل مشجعا إياها على قبول الصفقة وإنقاذ العائلة ، ومن خلف الثلاثة ، ظهر شبح حسين باكيا ! حسين الذى أخلص لها الحب ، وهو بعد الفتى الشهم ، الكبير النفس ، المعذب القلب ؛ حسين الذى تحمل له فى قلبها أطهر عاطفة وأصدق

حب ، والتى كانت تود أن تعيش لترعى سعادته فقط !

هل تتزوج منه لتكافئه إخلاصا بإخلاص ، رغم ثقتها أنها غير أهل له ؟

ولكن . . . أبوها الذى رباها ، أمها التى حملتها ، أخوها الطفل البرىء ! هل تضحى بهم جميعا من أجل حسين ؟

إن أباها لم يستمع لأنينها فيما مضى ، فهل تستمع هى لبكائه الآن ؟ ولكن هل من الأب ينتقم الإنسان ؟ وكيف إذن يهنأ لها عيش وهذه عائلتها تهوى إلى حضيض التعاسة ؟

هل تتزوج العجوز السكير فتنقذ أسرتها وهم بعد سيقدرون تضحيتها ؟ ولكن حسينا لاقى كثيرا ! عادى أهله ، وهجر قريته ، وتحمل إهانة أبيها غنيا ، وغطرسته فقيرا ، فهل تكافئه بالجحود والنكران محطمة قلبها وقلبه ؟ وهل تهنأ بإنقاذ أهلها وهذا حسين الذى تحبه ، يقتله اليأس أو يسقمه المرض ؟

إذا تزوجت حسينا فشبح عائلتها سوف يعكر عليها العيش وسيذكرها دواما بأنها ملكت فى يوم ما سبيل سعادة أبويها وأخيها فأحجمت عن منحهم تلك السعادة .

وإذا تزوجت المثرى العجوز ، فشبح حسين سوف

يتبعها ، ويلاحقها فى نومها ويقظتها ، ليذكرها فى كل لحظة بأنها قاتلة . . مجرمة !

هى حيرى فماذا تفعل ؟

* * *

هذه هى القصة ، لم أحاول تنميقها أو ترتيبها ، خبرتها بنفسى وأطلعتنى على الباقى صديقتى وسألتنى فى النهاية « ماذا ترين ؟ إننى أنكر نفسى وأجهل سعادتها ، لكنى لا أستطيع أن أنكر أبى أو أتنكر لحسين . . . إنى فى حاجة إلى السلوى والمشورة فماذا ترين ؟ »

* * *

وإنى إذ أبسط الآن الحل الذى رأيته لها ، أرجو ألا يتهمنى أحد بنكران التضحية فى سبيل الآباء ، بل يجب أن نقدر أولا الظروف التى وجدت فيها الفتاة . ولا يمنعنى هذا من أن أصيح بكل قواى ، بوجوب طاعة الآباء وبذل الحياة فى سبيل سعادتهم إذا كانوا رجالا ، وإذا كانوا من جانبهم يقدرون البنوة كما يقدرون الأبوة . . .

* * *

خاتمة القصة فى رسالة

من المؤلفة الى البطلة

أختى . . . .

لك الله يافتاة . . . قذفت بك الأيام السوداء وسط غمرات من الأسى والحيرة ، كأن لم يكفك ألم صامت ، وثورة كامنة ، وحزن دفين تعمق فى نفسك وأنت بعد طفلة فى المهد !

ماذا يريد أبوك وصديقك ياتعسة ؟ أيضيرك أن أسميك هكذا ؟ ولكن بكل مافى هذه الكلمة من عاطفة ورثاء وحنو ، أتحدث إليك من قلبى ، وللقلوب يا تعسة أحاديث !

وكأنى بك تحسبين صمتى انشغالا عنك بالامتحان كما تقولين ، وكأنك لم تحملقى فى الأفق البعيد ، لترى أية فتاة ثائرة باكية قرأت كلماتك ، ولكم حاولت أن أكتب إليك فمنعنى . . . لا أعلم ماذا ! إنها كتلة صغيرة تتكون من لاشيء تقف فى مجرى الهواء عندما لا يقدر الإنسان على كبح جماح

عاطفة البكاء ! سميها ما شئت واختارى لحالتى ما يلذ لك من الأسماء . ولكن ، ألست ترين معى أننا نسير فى حياتنا إلى غاية مجهولة يريدها لنا غيرنا فيندفع بعضنا فى طريقها فى جهل وعمى ؟ جهل فى القلوب وعمى فى الأبصار ، رغم ما نشعر به من إرادة وحذر ، ورغم هذه الأعين الواسعة التى فى وجوهنا وكأنها ما وجدت إلا لتحمل إلى قلوبنا الضعيفة رسالة الهم والشجن ، وإلى عقولنا الظامئة ، قليلا من المعلومات المهوشة والتجارب الجوفاء ، وما أردأ التجارب من موصل لحرارة الحياة ؟

وهنا أتساءل : لماذا لم تشبى مستهترة كأبيك يافتاة ؟ إذن والله فما كان ألذ لنفسك الباردة من مائة وخمسين فداناً ، وهى ليست مائة وخمسين جنيهاً ، تقدم لك صداقا وما كان أسعدك بتلك الأكوام الصفراء ، تعبث بها يداك فى لذة واستهتار ! !

ولكنك فتاة لامادية ... هكذا أعرفك ... أو تريدين أن أذكر لك بعض ما أعرفه عنك ؟

أعرف فيك تلك الفتاة المليئة بحرارة الحياة ، ولو أنها نفسها تتذمر من تلك الحياة وتنقم عليها ، بل كأنى أرى

بعينى النفاذتين ما تحت ثيابك من ثوران عاطفى ناقم على الحياة وما فيها ، أعرف فيك ذلك الضال المهتدى الذى يثور فى صمت ، ويبتسم فى مرارة ؛ وأحس بما فيك من خواطر تحاولين جهدك إخفاءها ، حتى لا أرى فيك إلا تلك الوادعة الهانئة ، التى تنعم بثروة أبيها ولا تفكر فى شىء ولا تسأل عن شىء ؛ وأصارحك بأنه كان يحلو لى أن أرقب وميض شعلة عواطفك عن كثب ، وأن أراها تتأجج تحت رماد الحياء والمداراة كزبد الأفران العالية ، يطفو فوق الحديد المنصهر ، فترى العين فيه سطحاً ترابياً أدكن خلواً من البريق ، حتى إذا غلى المرجل انفرج الزبد ورأينا الحمم واللهب ؛ نرى لهب الحديد المنصهر يشوى كبد ذلك الأتون العالى ، ولكنه لا يئن ولا يتوجع ؟ هكذا أعرفك ، وهكذا تقدمت تستشيرين من تعرف عنك هذا وأكثر ، فى أمر هو الحياة والمستقبل .

* * *

يا لله كم تؤلمنى ثقتك ؟ ؟ لماذا عرفتك ؟ ولماذا ذهبنا إلى أبعد حدود الإخاء والثقة ؟ ألتحكمينى اليوم فى مستقبلك ولأكون فى موقف المسئولة عن سعادتك ؟ إنى لا أريد

أن أكون لك جلاداً ، وأنا بعد لا أطيق إلا أن أراك سعيدة تضحكين وتبتسمين ، ولو أنها ضحكات السريرة الباكية ، وبسمات القلب الثائر .

على أنى لن أصمت ، بل وأذهب بعيدا فأدلى إليك برأيى على سبيل الأمر والإلزام ، وأنت يا أختاه لا تحسنين التصرف ، وأمك بجانبك تسيل دموعها ، وأبوك يبكى ، والشاب يتألم أعمق الألم ، فدعينى إذن أرشدك إلى الطريق الذى أراه ، فإن ظفرت بالسعادة وأنت سائرة فيه فما أسعدنى بك ، وإن غلبت عليك الشقوة فما أعمق ثقتك بحسن نيتى وإذن فما أقربك إلى الصفح !

* * *

لن آمرك بترك أبيك والخروج عن الواجب رغم استهتاره ، ولكنى أيضا لن أجعل منك يدا مجرمة تخنق قلب الشاب الذى أحبك لسمو نفسك . وقبل أن تغرقينى باعتراضاتك ، أسألك لماذا لا تسألين أمك عن سبب إهمالها فى رعاية أبيك أيام كان ثريا مستهترا ؟ ولماذا لا تسألين أباك كيف ينفعه ثمنك الذى يدفعه العجوز السكير وقديما لم ينفعه ما له ؟ ولم لا تسألين نفسك ، كيف تقبلين المجاعة الروحية والدمار النفسى ولن يقول حسين والناس : مسكينة

ضحت بكل شيء فى سبيل أبيها ، بل سيقولون : مستهترة أغواها الأصفر الرنان ، وسوف تمهد لنفسها حياة مليئة بالحرية والغواية ؟

ثم هل تظنين أن من البر والتضحية أن تفتحى لأبيك باب الغواية والضلال بعد أن سدته فى وجهه الحاجة ؟ وأن تضحى بنفسك وبالشاب البرىء ، ليكبر لك أخ متلاف مستهتر كأبيه ؟ وأن تقتلى نفسا بريئة لتضمنى المال لأمك التى أغمضت عينيها عن مساوىء زوجها أو شاركته فيها لست أدرى ؟

لا يا أختاه . . لن ينطق المأذون بالكلمة التى تربطك بهذا السكير ، إلا وفى ثناياها الحكم عليك بالشقاء ، ولن تزفى إلى هذا المهدم المفسود إلا على أنقاض سعادتك ، ولكن هل تفرين من أهلك فى محنتهم ما دام قبس النجاة يغريك من بعيد ؟ وهل تنتهزين فرصة الضعف من والدك المتنمر الجبار ، لتتركيه فى بسمة ساخره ؟ لا . . . . أنا لا أرضى بذلك وإذن فأنصتى إلى أوامرى ، ولا يعميك الحاضر عن مستقبل غاص بالشقاء والجنون ، أو حافل

بالسعادة والسكون ، واذكرى أننا فى يوم له ما بعده فلا حكم غير العقل .

* * *

« تزوجى حسينا » ترى ماذا تحدثه تلك الكلمة فيك من دهشة ، لأنك حاولت ـ ولكن عبثا ـ أن تظهرى لى أن اهتمامك بسعادة أسرتك أكثر من اهتمامك بأى شىء ، وأنك مستعدة للحكم مهما قسا ؟

« وأنقذى أباك » من الضائقة المالية والخلقية ، قدمى له صداقك وما تملكين من حلى ، وليكن الجميع مائتى جنيه ، ليكون رأس مال لمتجر متوسط يبيع فيه البقالة أو الأقمشة والأولى أفضل لاحتياج الناس إليها دائما حتى فى الأزمات الطاحنة ، وعليه أن ينشىء نفسه من جديد نشأة شريفة رزينة ، وأن يكون بهذا المال وأراه كافيا ـ ثروة واسعة يستعين بها على تربية ولده تربية مهذبة صالحة .

« واهمسى فى أذن أمك » أنها مسئولة عن شقاء الأسرة قديما وحديثا ، رغم ما تعتذر به .

« وهنئى أهلك الطفل » ليملأ فراغ بيتك الحديث

بضحكاته الرنانة ولتربيه التربية الأولى الاساسية ، ريثما يستقر حال أبيك .

يبقى بعد هذا ، رأيى فى تنفيذ الحكم .

أما الشاب فسيقبل راضيا مغتبطا ، ولن يضيره أن تذهبي إليه بقلبك وحبك ، لا بحليك وأثاثك ، بل وستكفينه عبء هذه المفرشات المكدسة التى تسبق العروس إلى بيت زوجها لتحتل الهواء الطلق منه ، وإذا قبل فما أجدره بالحب وما أحراك بالعمل على إسعاده !

وأما أبوك فيجب أن يقبل ، وإذا عز عليه أن يتحول من غنى مترف إلى تاجر شريف ، فدعيه فى غوايته ، وأشهدى الله والناس ، أنك فعلت ما فى طاقتك ، وأن أباك لا يريد الحياة العملية الشريفة ، ولكنه يريد المال ، ليمهد له طرق الشر والضلال .

وأما أخوك فسيمنحكما من السعادة أكثر مما تمنحانه من رعاية ومال ، وستجعلينه رجلا ، وحسبك بعدئذ أن ترى غرس يديك يسير فى معترك الحياة مجاهدا وشريفا .

* * *

هيه ! ! أليست قسمة بديعة تقومين بعملها وتحركك

فى الخفاء يدى ويشاركك قلبى ؟ لشد ما حاولت يا أختاه بعد قراءة رسالتك الملتهبة ، أن أتحرر من قيد كلماتك النارية التى طوقتنى بطوق من دثارها المؤلم ، وشبكة من خيوطها الحمراء ، وأن أنسى نزعة البكاء التى كانت تتواطأ على صفحة خطابك كى أحكم عقلى وأخرج لك بفكرة يراها الناس حكيمة ؟ ولكنى لم أفلح ، فالناس يحبون المال فى إسراف وأنا لا أستطيع أن أقبل تضحية الواجب والحياة فى سبيل هذا المعبود الأصفر ، وليس ذنبا أن أرى مالا يراه الناس (فأى هكذا خلقت) . فإذا نصح لك أحد برأى غير ما رأيته لك فلا تنصتى ، وثقى أن فراسة الإيمان والحب والإخاء لا تخيب .

وبعد فأنا أنزهك عن النظر إلى تلك الثروة الطائلة التى أضعتها عليك ولا زلت أزيحها بيدى بعيداً عنك . . .

لك من أشعة الشمس ساعة الغروب ، تشهدينها وفى نفسك غبطة وفى قلبك حياة ، ما يغنيك عن أكوام مكدسة من الذهب ، لا تستطيع أن تسكب فى قلبك قطرة واحدة من الحياة ؟

لك من ضوء القمر الفضى اللامع ، تستقبلينه فى ظلام

الليل وأنت فى غمرة من السعادة النفسية ، وفيض من جمال الحياة ، ما يغنيك عن كثير من المال ، تبيعين به حرارة الحياة وحياة الهدوء . . . .

هى أكلات ثلاث ياعزيزتى ، لا طاقة لمعدتك على تحمل أكثر منها ، وهى سترة واحدة لا تتفاوت فى تأدية الغرض سواء كانت من نسيج الذهب أو القطن ، فماذا وراء زواجك بالغنى يا أختاه ؟

ثقى أن مكانا عزيزاً يعده لك زوجك المثقف فى قلبه خير من قصر فخم يشيده لك هذا السكير من ذهبه ، وأن زهرة صغيرة يهديها لك زوجك رمز إخلاصه وحبه ، أسمى من عقد من أثمن الجواهر ، يخنق به الآخر عنقك دليل إعجابه ، وثمنا لما تمنحينه من حياة .

إن بريق عينى حسين ، المملوءتين حياة وطهارة ووفاء ، أعز من بريق الذهب . ترينه لتذكرى فى حسرة أليمة ، أنه أضاع سعادتك . وسلبك راحة البال وصدق اليقين .

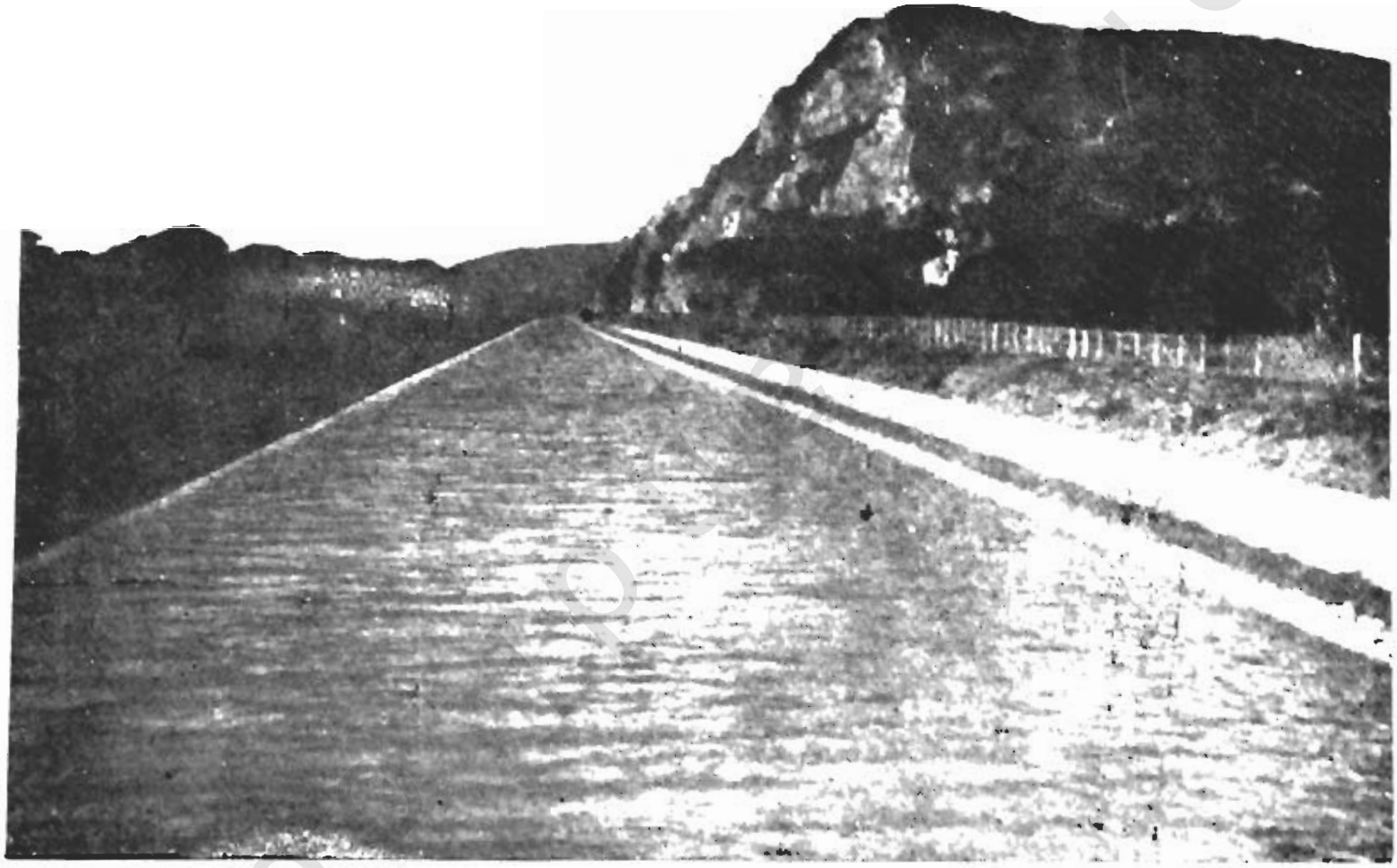

ترعة رى رئيسية ، مبطنة بالحجر والأسمنت